الخطبة الثامنة والثمانون
ثم ماذا؟

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، وبعد:

كلنا نؤمن ونعتقد بما لا شك فيه أن القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة الباقية على مر الزمان والمكان، وفيه التحدي الإلهي القائم على مر الزمان لكل الناس وفي أي مكان، وذلك قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: 17/ 88].

وفي هذا القرآن إلى جانب إعجازه، فهو المنارة الوحيدة والسبيل الوحيد لسعادة البشر في الدنيا وفي الآخرة، ولا سعادة ولا هناء مطلقاً ولا عيش رغيد وهانئ ومتوازن ومترابط ومحكم وصالح إلا بتطبيق أحكامه وشرائعه، هذه حقيقة سوف تعيها البشرية، وقد تَعِست البشرية وازدادت تعاسة كلما بَعُدَت عن شرع الله، والواقع الاجتماعي لجميع الشعوب هو الدليل الأكبر على هذا، ولذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء: 17/ 9].

قوله إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم: أقوم وأحسن وأمثل وأصلح وأفضل وأسعد وأتم وأكمل في كل شيء، وفي أي سبيل من سبل الحياة، والذين يؤمنون بعقيدة وشريعة ومنهجية هذا القرآن ويعملون بها لهم أجرهم الكبير في الدنيا والآخرة، والأجر ما هو إلا سعادة وهناء ورفاهية واطمئنان ووفرة في المال والصحة أفراداً وجماعات وشعوب وأمم في الدنيا، وجنة عرضها السماوات والأرض في الآخرة.

بعد هذه المقدمة أقول بأن آية واحدة في القرآن الكريم قد لخصت وجمعت مراحل الحياة كلها بشكل مُعْجز فريد وتحدّت كل من يعارض ولا يؤمن بهذا الشرح وبهذا القرآن وبهذا المعتقد، فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الحج: 22/ 5].

آية في غاية الروعة، خاطبت الناس كلهم، وخصصت هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة، وأتت بالإعجاز العلمي لخلق الإنسان، والذي لا يعلمه مخلوق على وجه الكرة الأرضية قبل (1420) سنة، وجاءت بتفصيل كامل آمَنَ من أجله كَفَرَة، لعلمهم بأن هذا لا يمكن لبشر أن يعلمه، فكان لا بد، وأمر حتمي، أن قائل هذا الكلام وهذا الترتيب الدقيق هو الخالق، لا إله إلا هو وأن محمداً عليه الصلاة والسلام هو المُبَلّغ عن ربه، ثم ماذا؟

ثم نخرجكم طفلاً، ثم ماذا؟ ثم لتبلغوا أشدكم، ثم ماذا؟ ومنكم من يُتوفى، ثم ماذا؟ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئًا. ثم انظر إلى المحاكاة العقلية والحجّة المنطقية. فكما أنّا خلقناكم من تراب. انظر إلى التراب في الأرض القاحلة حين يُنزّل الله عليها الماء تعيش وتنبت من الأزهار والخضراوات، فانظر إلى المقارنة، وما زلنا في آية واحدة كما ترون الأرض الميتة القاحلة تعيش وتزدهر وتخضر بهطول المطر وكل هذا بإذن الله ومشيئته، كذلك خلقكم الله من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة مُخلَّقة وغير مخلّقة، أنتم ترون الأرض ولكنكم لا ترون تطور الإنسان ومراحل خلقه، فاستدلَّ بالثانية على الأولى، ثم بيّن مراحل الحياة والتي يعرفها كل شخص وهي:

1. الطفولة.
2. الشباب.
3. الكهولة.

والكهولة نوعان: نوع يحافظ على عقله وذاكرته، ونوع لا يحافظ على عقله وذاكرته. وهذا الذي ينتشر كثيراً الآن -عافانا الله منه- ثم ذكر الموت الذي قد يأتي في أي فترة من فترات الحياة، آية جامعة عظيمة مُبهرة، مُعجزة، دقيقة متحدّية. والسؤال الآن: ما هو المقصد من الآية؟ مقاصد الآية لا يحيط بها إلا الله سبحانه وتعالى، ولكن أحد هذه المقاصد -والله أعلم- أن تجعلك تؤمن بالبعث، لأنه قال: ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾، أو أن يكون المقصد تعريف الناس بربهم، لأنه قال: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم﴾ يعرّف بنفسه سبحانه وتعالى بأنه الخالق، ولأنه أتى سبحانه بالآية التي بعدها: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾ [الحج: 22/ 6]، فهو الله سبحانه وهو الحق سبحانه، وهو الذي يحيي الموتى، وهو الذي على كل شيء قدير، ثم قال: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج: 22/ 7]. كل هذا الكلام للناس عامة والذين لا يؤمنون بالبعث خاصة، وصلنا إلى النتيجة التي لا بد أن يؤمن بها الإنسان، لأنه أتى بالدلائل العلمية والمنطقية لإقناع هذا الإنسان، فكانت النتيجة بأن التوكيدية وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

وفي الآية دلالة أخرى مهمة؛ وهي: أن الله سبحانه وتعالى جاء بـ (ثم) فترددت في الآية خمس مرات، فلعل في استخدامها دلالة على محاكاة عقلية وسؤال منطقي يوجهك إلى نقطة مهمة، ولعلها أهم نقطة؛ وهي: أنك تقوم بأعمال، فهل سألت نفسك: (ثم ماذا؟)، تكون طفلاً ثم شاباً ثم كهلاً، ثم ماذا؟ الموت ثم ماذا؟ عذاب في القبر أو نعيم ثم ماذا؟ ثم البعث، ثم ماذا؟ ثم الحساب والوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالى، ثم ماذا؟ ثم إلى جنة أو نار إذن؛ ثم ماذا؟ توجهك إلى نهاية مصيرية فيها سعادة أبدية أو شقاء أبدي والعياذ بالله، انظر حولك، كلنا يركض وكلنا يلهث وراء شيء ما، وكلنا يحاول تحصيل شيء ما، ولكن هل توقفنا لحظة وفكرنا، ثم ماذا؟ إلى أين نركض؟ إلى أين أسعى؟ ما هو الهدف؟ ثم ماذا؟

عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها» رواه مسلم.

كل الناس يسعى، فإما أن يعتق نفسه من النار بسعيه، أو أنه يوقع نفسه في النار بسعيه، وسعي هذا الإنسان لو كان محكماً، ولو كان واعياً ومبصراً وسائلاً نفسه ثم ماذا؟ لكان عمله أَصْوَبَ وأحكم، عندما أريد أن أغش فأسأل نفسي ثم ماذا؟ يأتيني الجواب: موت، فحساب، فعقاب، فأقف عن الغش، وتقف يدي عن الحرام، أي عمل وأي سعي وأي شيء يجب أن يكون محكوماً، مربوطاً، معلقاً بـ (ثم ماذا؟). وسؤالي لنفسي ولك الآن: ما هو الشيء الذي يؤرقك أو ما هو أخوف ما تخافه؟ كلٌّ منّا له تفكيره وله تحليلاته لو سألتني لقلت: إن أخوف ما أخافه، والسؤال الذي يؤرقني هو: كيف ستكون حياتي في قبري؟ قد يقول البعض: إن أخوف ما نخافه هو النار أو عقاب الله تعالى. أقول: صحيح، ولكن أليست النار أو عقاب الله تعالى نتيجة لعذاب القبر؟ ثم ماذا بعد عذاب القبر؟ أو ثم ماذا بعد نعيم القبر؟

أنا لما قلت: إن خوفي من القبر، لأن القبر مقدمة لِما بعده، وأنا بهذا متبع ومقلد لسيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه لأنه كان إذا مرّ على قبر بكى بكاءً مُراً، فلما سئل عن ذلك قال: «هذا أول منازل الآخرة، فإن كان حسناً فما بعده أحسن منه، وإن كان سيئاً فما بعده أسوأ منه».

فيا عبد الله، دنيا نعيشها، وأموال نجمعها، وأولاد نزوجها، ومشاغل ومشاكل.. ويبقى السؤال: ثم ماذا؟ إنها النتيجة الحتمية، جئت بدون شيء، وتذهب بدون شيء إلى قبر، إما أن يكون روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار والعياذ بالله.

والسؤال المهم: كيف يكون قبري؟ للعلماء آراء في هذا المجال،ورسول الله ﷺ هو الفصل والحَكَمْ، وقوله تعالى فوق كل قول: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد: 13/ 28]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال: 8/ 2]، وقوله تعالى: ﴿ ۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرٞ ﴿١١﴾ ﴾ [العاديات: 100/ 9-11]، وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [فصلت: 41/ 20].

عن عتبان بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لن يوافي عبد يوم القيامة يقول: لا إله إلا الله، يبتغي بها وجه الله إلا حرّم الله عليه النار» البخاري - حم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأشار بإصبعه إلى صدره» مسلم (2564).

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أوصِني يا رسول الله؟ فقال له رسول الله ﷺ: «تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم، وتحج، وتعتمر، وتسمع وتطيع، وعليك بالعلانية وإياك والسرائر» رواه الحاكم، وقال بعض أهل العلم: إن الحياة في القبر هي حياة السرائر والضمائر، فاجعل ضميرك دائمًا مرتاحًا، واجعل سريرتك دائمًا بيضاء؛ أي: لا غش ولا حسد ولا مكر ولا خديعة ولا ضغينة ولا غيبة ولا نميمة. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد: 13/ 28].

فعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان، وجعل قلبه سليمًا، ولسانه صادقًا، ونفسه مطمئنة، وخليقته مستقيمة، وجعل أذنه مستمعة، وعينه ناظرة، قد أفلح من جعل قلبه واعيًا» حديث حسن - حم - البيهقي في الشعب.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قوله: «سبعة يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» متفق عليه.

وعن زيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قوله: «من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيّ القيوم وأتوب إليه، غفر له وإن كان فرّ من الزحف» سنن الترمذي.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: «سئل رسول الله ﷺ عن أفضل الناس؟ فقال: كل مخموم القلب صدوق اللسان» قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال ﷺ: هو التقي النقي، لا إثم فيه، ولا بغي، ولا غل ولا حسد) سنن ابن ماجه (3397).

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قوله: «ثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى، وثلاث مهلكات: هوى متبع، وشح مطاع، وإعجاب المرء بنفسه» الطبراني في الأوسط - صحيح الجامع (3039).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «ثلاثة أعين لا تمسها النار: «عين فقئت في سبيل الله، وعين حرست في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله» الحاكم.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ألا أدلكم على ما يُكفر به الخطايا ويزيد به الحسنات، إسباغ الوضوء على المكروهات، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة» ابن ماجه - صحيح.

وعن علي رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ خطيباً يقول: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، طوبى لمن طاب كسبه، وصلحت سريرته، وحسنت علانيته، واستقامت طريقته، طوبى لمن تواضع في غير منقصة، وطوبى لمن أنفق الفضل من كسبه، وأمسك الفضل من قوله ووسعته السنّة، ولم يعد

عنها إلى البدعة» الحلية، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ [الطارق: 86/ 9]، وقال تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾ [الهمزة: 104/ 6-7].

يا عبد الله، ناجِ ربك في سرك وخلوتك، ادعوه، تضرع إليه، اعترف بخطاياك واستغفر، اعترف بتقصيرك واستغفر، إياك والغرور والكِبْر، إياك والتعالي على الناس، إياك وردّ الحق وغَمْط الناس حقوقهم، إياك والإعجاب بنفسك فالمُنعم هو الله، والعاطي هو الله، والمُقَدِّر هو الله، إياك والتألي على الله، إياك والقنوط من رحمة الله مهما كَبُرَ ذنبك فرحمة الله أكبر ومغفرته أكبر، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝٢٥﴾ [الشورى: 42/ 25]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠﴾ [الفرقان: 25/ 70]. وعن عطاء بن يسار رضي الله عنه أن النبي ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن فأوصاه: «عليك بتقوى الله ما استطعت، واذكر الله عند كل حجر وشجر، وإذا عملت سيئة فأحدث عندها توبة، السر بالسر والعلانية بالعلانية». طب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه